حساب الربح والخسارة

أن الحياة لا تقف على ساق واحدة كما لا ترتفع البناية العالية على كتلة عمود واحد، لأن العددية من طبع العباد والوحدانية من جوهر العبادة، أما الحياة الدنيا فتستقيم على الأجماع... الأجماع في الرأي والجهد والمشاركة ومن هذا المنطلق كانت فضيلة الصلاة مع الجماعة وتحمل المسؤولية مع ومن أجل الجماعة حتى أصبحت (الجماعية) من صلب حقيقة الوجود. والحقيقة صفة مطلقة تتجاوز مجال النسبية والعددية الى مجالات العلاقات الانسانية، فالانسان حيوان اجتماعي في أدنى درجات الوصف قال تعالى (لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) صدق الله العظيم، فالمسؤولية الجماعية تفوق الاجتهاد الشخصي منه في الأداء ولا تتساوى معه في الجزاء... والمساءلة الجماعية تعطي كل ذي حق حقه ولا تعفي الفرد من عبء التقصير في حدود واجباته ولا تزر وازرة وزر أخرى.

المدخل والمخرج :

أردت من هذه المقدمة أن أمتص حيرة القارىء في مضمون العنوان فيتصور أن الحديث يدور حول التجارة فالانسان تعلّم أن يستوعب لغة الأرقام فقط في مجال العمل التجاري ونسي أن هناك بالمقابل جوانب متناقضة في كل شيء... الخير والشرّ... الفشل والنجاح... الربح

والخسارة... ثم المال والبنون جانبان مكملان لبعضهما البعض... (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) حتى لا يكون المال هدفا في حدّ ذاته، ولا يكون البنون أعظم غاياته وانما تكتمل بهجة الحياة الدنيا بوفرة المال ونعمة الأطفال، ولا تستقيم كفة ميزان الحياة إلّا بوجود العاملين في وقت واحد... والسؤال كيف نوظف المال في سبيل تحقيق المنفعة من خلال الأطفال ؟ وكيف نوجّه الأطفال من أجل ترشيد الثروة الموجودة في المال ؟

لقد علمتنا الحياة وهي ـــ حقا خير معلم ـــ ان لذة البحث عن المال في غياب جهد الرعاية للأطفال، كانت بوابة الدخول الكبرى، والاولى لجماعات الباحثين عن الثراء في بورصة الحياة التجارية، وما زالوا يبحثون عن مخرج صدق من المتاهات الأسطورية والدهاليز المعتمة التي يحاولون الخروج منها بسلالم لولبية، كلما صعدوا درجا من سلم الثراء نازعتهم لهفة التطلع الى عتبة أخرى يصدق عليهم قول أبي الطيب المتنبي :

كلما أنبت الزمان قناة
ركّب المرء في القناة سنانا

وما أكثر الأسنة في غابة الرماح... الغابة التي نعيش فيها داخل المدن المتحضرة، وما أعظم البون بين الربح والخسارة... بأثر رجعي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

المال والبنون :

لقد كتب الكثيرون على المستوى العالمي والمحلي، عن مشاكل الأطفال وجنوح الأحداث... وأثبتت الاحصائيات أنه في ظلّ الظروف الطبيعية، لا يولد الطفل جانحا اذا تجاوزنا قلّة تقع في باب الوراثة ما زالت تخضع للبحث والدراسة وانما يتعلم الطفل بالتقليد والمحاكاة، وتوفر عناصر الانحراف عن الطريق السوي في داخل المجتمع.

ربما اننا نعيش داخل مجتمعات خرجت من (قمقم) الانغلاف الفصامي الى

(مولد) هوس الانفتاح، فقد كانت الطفرة أكبر من قدرة الطفل على تجاوزها فسقط في مستنقع الوحل الحضاري الذي يسير فيه المجتمع كالرمال المتحركة.

ان من سمات النضج العقلي التي تميز مجتمعا عن آخر... وفردا عن آخر هي المحاولة المستمرة والمتكررة لترويض النفس على حمل المسؤولية، لا محاولات اسقاط المصائب على أكتاف الآخرين بحيث يتعلم الفرد فضيلة قول الحق (أنا المسؤول). فقد أصبحنا من فرط افتقارنا الى روح النقد الذاتي ومواجهة الآخرين مجرد متفرجين على (مسلسل الخطأ) الذي يعرض أمامنا يوميا ونشاهده على شاشة الحياة ولا نعرف من المسؤول أو نجرؤ على رفع أصابعنا بالاتهام، لأننا جميعا أطراف في هذه القضية.

لقد وجدنا علاقتنا بالغرب أشبه بالزواج الكاثوليكي وصنعنا منها مشجبا نعلق عليه مشاكلنا الأجتماعية والتربوية، ونسينا أن هناك من الإيجابيات ما لو استجلبناه مع السلبيات التي غمرت أسواقنا وبيوتنا وشوارعنا وحجراتنا الداخلية، لحدث نوع من التوازن المؤقت حتى نستطيع ترتيب أمور بيتنا من الداخل... لقد أصبح الأب يقضي نصف يومه في مجال العمل ويداعب أرقام الحاسب الألكتروني والنصف الآخر مناصفة بين جلسات العمل ومناقشة المناقصات والسفر المفاجىء على خطوط الطيران المتعددة الاتجاهات ولحظات الاسترخاء القصيرة وفيما تبقى من الزمن في السؤال عن الحال والأحوال للزوجة والأطفال، والسؤال التقليدي الذي ينتظر الاجابة الجاهزة سلفا (ليس في الامكان أبدع مما كان) حتى اذا كان ذلك ينافي الحقيقة ويجافي الواقع ويتعارض وطبيعة الحياة... وفي هذه الاوضاع يجد الأب العاجز العزاء في (انني أشقى من أجلكم) وقد تكون حقيقة، ولكنها خطوة صحيحة في اتجاه خاطىء شأن الشقاء المهدر رغم الجهد المقدر، لأن حاجة الطفل ليست فقط في الماديات المتوفرة ولا في المغريات المتواترة داخل وخارج البيت وانما في الوجود الحسي والمعنوي للأب... ذلك الوجود الروحي الذي يلمسه الطفل بأصابعه العشرة ونشتم

رائحته بوجدان زهرة الجاردينيا المتفتحة في شرفة المنزل... وحاجة الأم الى قدر من الأهتمام يعطيها قوة الدفع لتفريغ المخزون من الطاقة النفسية في روح الأطفال وبغير هذا العقار السحري، ينضب معين حنانها وتفقد القدرة على استنبات الأخضر من اليابس وفاقد الشيء لا يعطيه... وربما لجأت الأم المنهمكة بالمسؤولية والباحثة عن الطمأنينة الى زرع القلق في نفوس الأطفال دون وعي بما تفعل لأن الحصار النفسي داخل جدران البيت مع مرور الزمن يعطل حواس الانسان ويجعل اليأس يدب في أغوار النفس ولا يطفو الى السطح الا في لحظات الضعف والانكسار واخطرها ما ينفجر كالعاصفة بلا سابق انذار.

المعادلة الصعبة :

يقولون : لا خيار لمن لا يختار... والخيار لا يكون الا في وجود بديلين، وأصل الصراع عندما تطغي عوامل الجذب أو الدفع في جانب طرف على الآخر... وأكثرها عندما تتساوى الدافعية في الاتجاهين... وبينما يبدو أن الخيار السهل هو السير في طريق المال فأن الواقع يؤكد أن الخيار الصعب هو الاتجاه نحو العناية بالأطفال... فالمال ثروة... والأطفال ثروة... ولكن المال لا يستطيع ان يصنع أطفالا يحققون الخيارات المطلوبة للمستقبل، بينما يستطيع الأطفال بالحد الأدنى من الاهتمام والرعاية تحقيق أكبر الغايات التي لا تقدر بثمن... ان طفلا واحدا خارجا عن طاعة الأبوين... مارقا على سلطة المدرسة، جانحا في سلوكه الاجتماعي، يستطيع أن يبدد في لحظات، ما جمعته الأسرة في سنوات من أموال طائلة وثروة هائلة. بينما يستطيع، بالمقابل، طفل آخر مطمئن النفس في كنف والديه، هادىء البال في محيط أسرته، ينعم بالتقدير في إطار مجتمع يستطيع أن يكون منارة هدىً في طريق الظلام وشعلة وعي في دياجير الجهل الاجتماعي وحامل راية في مسيرة أمة كاملة... وتاريخ الأمم يصنعه أطفال شبوا عن الطوق وأدركتهم الرجولة في بداية المسيرة، فسجلوا بطولة مثيرة في منعطفات حادة في تاريخ شعوبهم، وأكبر دليل في كتب السيرة

والتاريخ. بينما لم يسجل التاريخ حتى الآن أن دولة ما، استطاعت أن تشيد مجدها أو تبني حضارتها بالمال في غياب العنصر الانساني القادر على تحمل مسؤولية البناء وترجمة أهداف التنمية الى برامج.

قضايا الساعة :

لقد طرحت أقلام كثيرة مشكلة جنوح الأحداث من زوايا مختلفة وان اختلفت في أسلوب الطرح، فقد اتفقت في وضع المشكلة في الاطار المناسب ومن أكثر الأطر المناسبة النظرة الموضوعية الى هذه المشكلة من منظور وطني على انها احدى قضايا الساعة... وما أكثر هذه القضايا على امتداد الوطن العربي.

ان جنوح الاحداث وانحراف الشباب لم تعد مشكلة دولة معينة دون غيرها فقد أصبحت عصرية بكل المواصفات الجديدة تفرض نفسها داخل البيت والشارع في كل قطر... تتشابه الى حد كبير رغم الاختلافات الجوهرية التي تتميز بها انماط التركيبة الاجتماعية بين الدول العربية والاوروبية وقد اتيحت لي في مناسبات متقاربة، فرصة الاشتراك في عدة مؤتمرات حول جنوح الاحداث وتوفرت لي أسباب لقاءات متعددة في أقطار متفرقة حول مشاكل الطفولة واضطرابات الأحداث واذا لم تكذبني الذاكرة فأكاد أجزم أن تشابه تضاريس المشكلة بين الدول المشاركة والمراقبة في هذه اللقاءات يجعلني اتساءل ان كان السبب ــ حقا ــ ينبع من مصدر مشترك يصب في قرار واحد ؟ واذا أردنا أن نجد حلا جذريا لهذه المشكلة فيجب أن يكون التحرك بتخطيط مشترك وجهد جماعي ونهج قومي وحس وطني يتجاوز الحساسيات الاقليمية والنزعات الشعوبية، ويضع القضية في الحجم المناسب ويسلم مفتاح الحلّ الى أعلى مستويات المسؤولية في انتظار خطوات التنفيذ... وحتى يتم هذا الاعجاز، فلتكن هذه فترة صمت عاقل... بعيدا عن لطم الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية، ومحاولة رصد حسابات الفصل الختامي في بند الربح والخسارة... لأننا نتعامل مع عنصر الانسان... الرقم الوحيد الذي يصعب

القفز فوقه... أو السير عليه... أو الألتفاف حوله... أو الاستخفاف به... أو الاتكاءة عليه... أو المزايدة فيه لأن خسارته لا تقدر... وفقده لا يعوض... وفرصته لا تتكرر في العمر مرتين.